

# عقدة النقص

كلنا نعلم أن التقارب في المستوى الاجتماعي من الأمور الهامة لحدوث التوافق في الحياة الزوجية، فما الذي يمكن أن يحدث إذا تم الزواج بين شخصين مختلفين في مستواهما الاجتماعي؟ هناك نموذج آخر يوضح مدى أهمية هذا التقارب، وما هي المشاكل التي يمكن أن تحدث إذا حدث ارتباط من هذا النوع .

د.طارق درويش

استشاري الطب النفسي



فها هي فتاة ميسورة الحال ذات عائلة عريقة، أحببت شابا من أسرة بسيطة تعيش في إحدى القرى الريفية، أتت إلى المدينة لتتعلم ويحصل على الشهادة الجامعية، أحببت الفتاة هذا الشاب، أحببت فيه جديته، طموحه، سمريته، قوة بنيته، نظراته الثابتة وصوته الهادئ الرخيم، كما أحبها هو، وكيف لا وهي فتاة الصف المدللة، الأكثر جمالا وأناقة ورقيا، فكل ما فيها ينبض بالحياة ويشع بريق من الجاذبية يلفت أنظار الجميع إليها، كان يلاحظها من بعيد، يرمقها بإعجاب كما كان يفعل غيره، وهذا هو كل ما كان يملك أن يشعر به تجاهها، الإعجاب، والإعجاب فقط، فهو إنسان واقعي ويعلم أنه لا ينبغي أن يسمح لنفسه بأكثر من ذلك، ولكنه لاحظ أنها تعامله بأسلوب مختلف، ولم يع الأمر في البداية، لكن مع مرور الوقت تأكد له أنها تخصه دون الآخرين باهتمام متزايد، وأنها ربما تكن له بعض الإعجاب، عندئذ بدأت أفكار كثيرة تتلاحق في ذهنه، ومشاعر متضاربة تتملكه وحيرة تسيطر عليه، فهل لتلك الجوهرة الثمينة التي طالما تطلع إليها في صمت العاجزين أن تكون معجبة به، وهل له أن يصل إليها يوما ويقبضها، وبدأ الأمل ينمو بداخله شيئا فشيئا للارتباط بها، وإذا بالإعجاب يتحول إلى تعلق شديد، وأصبحت تسيطر على فكره وخياله، ولمح لها عن إعجابه بها، وبادلته هي الأخرى مشاعره بتلقائية وبساطة وصدق، وبدأت العلاقة بينهما .

وكانت تلك العلاقة مثار دهشة واستغراب كل من يعرفهما، فلا يوجد أي شكل من أشكال التقارب بينهما، فالفارق الاجتماعي والمادي بينهما كبير، كما أنها تملك كل المميزات التي تتمناها من هي في عمرها، ويتمناها كل شاب في شريكة حياته، بينما يفتقد هو لكثير من المميزات التي يحتاجها

فهي ترى الزواج ذاك الرباط الأبدي الذي يسمي فيه كل طرف لإسعاد الطرف الآخر، ولا ينبغي لهذا الرباط أن ينكسر تحت أي ظرف من الظروف، كما وعدها هو بأن يمنحها السعادة، وكان صادقا في ذلك .....

لكن بمرور الأيام بدأت تلاحظ بعض الأمور التي لم تستطع تفسيرها، فهو شديد الحساسية لما يقوله أي من أفراد أسرته، يبدو عليه عدم الراحة والتلملل في وجودهم بالرغم من حبهم الصادق له ومراعاة مشاعره ومحاولة إرضائه بشتى الوسائل، كما أنه بدأ ينتقد صديقاتها الواحدة تلو الأخرى ويعبر عن استيائه من ارتباطها بهن، معللا أنهن يستنفدن من وقتها ما يجب أن توفره لبيتها وزوجها، وبدأ ينعتهن بصفات ليست فيهن، ليقول من ارتباطها بهن، كما بدأ ينتقد أسلوبها

الشباب في عمره، التي تتمناها أي فتاة في الشاب الذي سوف ترتبط به، وكان يصل إلى مسامحه بعض التلميحات التي تحمل هذا المعنى، ويرى نظرات الاستغراب أحيانا والسخرية أحيانا أخرى، كانت تؤلمه كثيرا ولكنها بالطبع لم تنهه عن الاستمرار في علاقته حتى تم الزواج، ضد رغبة الوالد الذي نصحها مرارا وتكرارا أنه زواج غير متكافئ، ولكنها أبدت تصميمها وثباتا على رغبتها في الارتباط به، كما أن الأم لم تكن مقتنعة تماما ولكنها كانت تريد أن تسعد بسعادة ابنتها، وتحمل الوالد تكاليف الزواج كاملة برحابة صدر، فمادام الأمر قد انتهى وأصبح هذا الإنسان زوجا لابنته، إذن فهو بمثابة ابن آخر له، وتم الزواج، وأقبلت هي عليه برغبة صادقة في أن تكون زوجة وفيه مخلصا، تسعى لإسعاد شريك حياتها وتملأ بيتها بالمودة والحب،



أي شعور سلبي، ولكنه يكره تواجدها معهم ومساندتهم لها وتأكيدهم لتقتها بنفسها، كما أن العمل يعني الاستقلال المادي عنه، والسيطرة المادية هي أكثر شيء يضمن الاعتمادية والتبعية، إنه بعقله الواعي لا يريد أن يفقد ثقته بنفسها، ولكن بعقله الباطن يريد أن تكون على درجة من القوة والثقة بالنفس إن لم تكن مساوية له، فلتكن أقل، ولكنه لن يسمح ولن يستطيع تحمل أن تكون على درجة أعلى منه .

●●●

هذا الشكل من العلاقة الزوجية له درجات متفاوتة، قد يأخذ شكلاً بسيطاً هادئاً إذا كانت الزوجة حكيمة وقوية وواعية، أو كان الزوج واقعياً وتلقائياً وبسيطاً، ولكنه يتخذ شكلاً متعاضماً وجلباً حين تكون الزوجة محبة ومطبعة وهادئة، وكان الزوج ذا شخصية حساسة عنيدة تفتقر إلى الحكمة والموضوعية، ويستخدم الإسقاط كوسيلة دفاعية أساسية، وهو ألا يرى العيب في نفسه بل يسقطه دائماً على الآخرين، ونادراً ما يلوم نفسه بل يلجأ دائماً للوم الآخرين، وهكذا تمكنت تلك العوامل داخل هذا الرجل من أن تخفي هذا الكم من العواطف الرقيقة التي يحملها لزوجته وتحيلها إلى مشاعر سلبية وضغائن، لم تعان منها زوجته فقط بل هو أيضاً، والعلاج هنا يكمن في وعيه بكل تلك الصراعات، وإدراكه الكامل لها ولحجم الخسارة التي سببتها له، فإدراكه لتلك الأمور هو الذي سيولد الدافع لديه، وهو الذي سيحدد له أي السمات التي يجب أن يسعى لتحجيمها، ويمهد له الطريق للتغيير، ويتوقف نجاحه أو فشله في تهدئة ما بداخله من صراعات واستعادة علاقة زوجية سوية على ما لديه

يثور هو بشكل أعنف مما يدفعها في النهاية إلى الصمت والانخراط في البكاء، أو أن يأخذها بين ذراعيه برقة، ويتعامل معها بحنان بالغ ينسيتها للحظات كل ما تعانیه، وكانت تلك اللحظات هي الدافع الوحيد لها على الاستمرار معه، فهي تحبه وتشعر بضعفها البالغ أمامه، كما أنها على يقين من أنه يحبها، ولكنها لا تدري لماذا يتعامل معها بهذا الأسلوب.

\*\*\*\*\*

هذا النموذج في العلاقة الزوجية ناتج عن الفارق الكبير في المستوى الاجتماعي بين الزوجين، وفي بداية الأمر توقع الجميع كما توقعتم هي أن يكون سعيداً بها ومقدراً للجميل، وأن ينعكس هذا على محاولة الحفاظ عليها وإسعادها بقدر ما يستطيع، ولكن ما حدث كان غير ذلك، فلا مجال للمجاملات أو التفضل من أحد على الآخر في العلاقة الزوجية، بل أدى هذا التمييز إلى شعور عميق بالنقص تجاهها، بدأ في الظهور بعد أن هدأت فترة الزواج الأولى واستقرت بهما الحياة، وقد كان رمز هذا التمييز من وجهة نظره هو ثقته الأكيدة بنفسها، لذلك كانت تؤرقه مظاهر تلك الثقة. فهي لم تثره، ولم تتعال عليه، ولم تتشدد عليه في يوم من الأيام بما فعلته معه، ولكن مجرد بسمتها التلقائية والنظرة الثابتة الواثقة في عينها كانت تعمق شعوره بالنقص، إنه بالفعل يحبها ولكنه لم يستطع أن يتعايش مع هذا الشعور بشكل مستمر، لذلك كان يؤرقه كل ما كان يزيد ثقته بنفسها، فهي بمفردها ضعيفة، ولكن في وجود أفراد أسرتها تبدو قوية، ومع أصدقائها أيضاً، لذلك فهو لا يكره أسرتها، ولا يكن لصديقاتها

في الحوار خلال لقاءاتهم مع الأصدقاء، فهي لا ينبغي أن تكون تلقائية إلى هذا الحد، وكان دائماً ما يبرر هذا الأمر بقوله إنها شديدة البراءة وليس لديها القدرة الكافية على فهم الناس، وهكذا صار انتقاده لها يتزايد على كل صغيرة وكبيرة، وكانت تستقبل تلك الانتقادات في البداية على أنها نصائح ممن هو أعلم منها وأكثر منها خبرة، ولكنها حين زادت عن حدها، أصبحت تضيق بها، فهي تشعر أنها غير راضٍ عن كل ما تفعله، وأنه غير مقتنع بتصرفاتها ككل، ولأنها بعد الزواج أصبح أهم أهداف حياتها هو إرضاء زوجها، كان عدم رضاه يؤكد فشلها وإحساسها بالعجز عن تحقيق أحد أهدافها الأساسية، حتى باتت وكأنها تستجدي منه كلمات الثناء، وهذا ما كان يرضى به عليها، مما أفقدها ثقته بنفسها شيئاً فشيئاً، وإذا بالبسمة تفرقت شفيتها، وتطول معها لحظات التأمل والصمت، وبدأت بالفعل تتشكك في قدراتها وإمكاناتها.. لم يكن يزيل عنها تلك الشكوك إلا تلك النظرات وكلمات الإعجاب الرقيقة التي تصل إلى مسامعها في بعض المناسبات العائلية حيث يكون هناك تجمع كبير من المعارف والأصدقاء، كانت تعود لطبيعتها الأصلية، تشعر بالانطلاق والحيوية تدب فيها من جديد، وتبدو جذابة كما كانت وتقال إعجاب الحاضرين، فإذا به يبدو متوتراً وعصبياً، متمللاً يريد ترك المكان، وداًماً ما يثير مشكلة معها في طريق العودة، بدون سبب واضح، وينعتها بصفات ليست فيها كالتسلبية أو التفاهة أو السطحية أو غير ذلك من الصفات، ويظل في هجومه عليها حتى تختفي ملامح السعادة التي في عينيها وتعود إلى وجومها وصمتها، حينئذ يهدأ هو ويكف .

فهو لا يبدو سعيداً إلا بين أفراد عائلته وعدد قليل من أصدقائه المقربين، وإن كان لا مانع أيضاً من انتقاده أمامهم من حين لآخر على تقصير في بعض الأعمال المنزلية أو عدم اهتمام كافٍ بالأولاد، كما أن أي صفة غير محببة في أولادها إنما يعزوها أنها موروثه من أسرتها، نصحتها بعض صديقاتها بالعمل، فهي أمامها فرص للعمل جيدة للغاية، ولكن قوبل هذا الاقتراح برفض شديد، متعللاً أنه رجل غيور ولا يسمح لزوجته بالاختلاط مع الآخرين في العمل، وبدأت شيئاً فشيئاً تضيق ذرعاً به وبمحاولاته الدؤوبة للانتقاص منها ومن أسرتها وكلما طفق بها الكيل وعبرت عن ثورتها ورفضها لهذه الأمور، كان يأتي رد فعله بأحد شكلين متناقضين، تبعاً لحالته المزاجية، إما أن